بأبي وأمّي من شهِدْتُ وَفَاتَه ... في يوم الاثنين النّبيِّ المُهْتَدِي
فظلِلْتُ بعد وفاته مُتَبَلِّداً ... يا ليتني صُبِّحْتُ سُمَّ الأسْوَد
أو حَلَّ أمرُ الله فينا عاجِلاً ... في رَوْحَةٍ من يَوْمِنا أو في غدِ
فتقومُ ساعَتُنا فَنَلْقَى طيِّبًا ... مَحْضًا ضرائِبُه كريمَ المَحْتِدِ [1]

ثم يقول في تأبين النّبيِّ ﷺ وتَعداد صفاته وتمنّي لقائه :

نُورٌ أضاءَ على البريَّةِ كُلِّها ... مَن يُهْدَ للنُّورِ المُبَارَكِ يَهْتَدِ
يارَبِّ فاجْمَعْنَا مَعًا ونَبِيَّنا ... في جَنَّةٍ تَثْنِي عُيُونَ الحُسَّدِ
في جَنَّةِ الفردَوْس واكْتُبْها لنا ... يا ذا الجَلال وذا العُلا والسُّؤْدُدِ
واللّهِ أسْمَعُ ما حَيِيتُ بهالِكٍ ... إلا بَكَيْتُ على النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

والغريبُ أن أحداً لم يشكّك في نسبة هذه المرثيّة لحسّان ، مع أن هذه الأبياتَ الأخيرة أشبهُ بابتهالات الصُّوفيّة المتأخّرين ودعواتهم ، ولسنا نستبعد أن يكون هذا الجزء قد أضيف إلى القصيدة في زمن متأخّر .

ونأتي إلى المرثيّة الأخيرة التي لم ترد في روايات الدّيوان ولا في طبقات ابن سعد ، ولكن ابن هشام أثبتها نقلاً عن أبي زيد الأنصاري[2] ، وهي أطول مراثي حسّان للرّسول ﷺ ؛ إذ تبلغ ستّة وأربعين بيتاً . وهي تبدأ بوقوف الشّاعر على حُجُرَات الرّسول ومسجده ثم على قبره ، وما أثاره ذلك في نفسه من ذكريات:

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ للرّسول ومَعْهَدٌ ... مُنِيرٌ وقد تَعْفُو الرُّسومُ وتَهْمُدُ
ولا تَمّحي الآياتُ من دارِ حُرْمَةٍ ... بها مِنْبَرُ الهادِي الذي كان يَصْعَدُ
و واضِحُ آثارٍ وَباقي معالِمٍ ... ورَبْعٌ لَهُ فيه مُصَلّى وَمَسْجِدُ

(١) المآقي : مجاري الدموع من العين ؛ والأرْمَد : الذي يشتكي وجع العين ؛ بقيع الغَرْقَد : مقبرة أهل المدينة ؛ وصبحت : سقيت صباحا ؛ والأسود : نوع من الحيّات الخبيثة ؛ والضرائب : الطبائع ؛ والمَحْتِدُ : الأصل.
(٢) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٦٦٦-٦٩٩ ، وملحقات الديوان ، ص ٣٧٧-٣٨٠ .